

تفسير سورة الإخلاص

التوحيد والتنزيه

إن المبدأ الأساسي في الاعتقاد: هو إعلان توحيد الله وتنزيهه عما لا يليق به، والإقرار باللسان، والتصديق بالقلب، فهذا هو منطق الإيمان وجوهره، فمن لم يؤمن بوحداية اله، وأنه الإله والرب الذي لا شريك له، ولا نظير ولا مثيل، لم يكن من أهل الدين على الإطلاق، مهما حاول تعويض ذلك بشيء من الأوهام والطقوس والأقوال. لذا كانت سورة الإخلاص المكية المسماة أيضا بالأساس معبرة عن ركن العقيدة، وكانت تعدل ثلث القرآن، لأن أصول التشريع الإلهي ثلاثة:

التوحيد، وتقرير الحدود والأحكام، وبيان الأعمال، أي العقيدة، والشريعة، والممارسة. أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رجلا سمع رجلا يقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) يرددها، فلما أصبح، جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقاهما، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

ومضمونها يقتضي الإخلاص في عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله عز وجل».

وهذه السورة هي:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)
(4

[سورة الإخلاص (112): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)
«1» «2» «3» [الإخلاص: 112 / 1 - 4].

أخرج أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسب ربه - تعالى عما يقول الجاهلون - فنزلت هذه السورة.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى خر مغشيا عليه، ونزل عليه جبريل عليه السلام بهذه السورة: سورة الإخلاص.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية، وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: قالت الأحزاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك، فأتاه الوحي بهذه السورة.

والمعنى: قل أيها الرسول لمن سألك عن صفة ربك ونسبته: هو الله أحد، أي واحد فرد في ذاته وصفاته، لا شريك له، ولا نظير، ولا عدل، ليس كمثله شيء، وليس مركبا ولا متعددا، وهو مبتدأ أول، والله مبتدأ ثان، وأحد خبره، والجملة: خبر المبتدأ الأول، والتصدير بضمير الشأن هو للتنبيه على فخامة الكلام الآتي، وبيان خطورته وروعته، لأن الضمير يدعوك إلى ترقب ما بعده.

فإذا جاء تفسيره وتوضيحه، تمكن في النفس تمكنا تاما، ولم يقل (الله الأحد) لأن

المقصود إثبات أن الله جل جلاله واحد، ليس متعددًا في ذاته، فلو قيل: (الله الأحد) لأوهم التعدد، والمقصود نفي التعدد الذي كان المشركون يعتقدونه. والله هو الصمد: أي المقصود وحده في قضاء الحوائج، لأنه القادر على تحقيقها.

(1) واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

(2) المقصود وحده في قضاء الحوائج.

(3) مكافئًا ومماثلاً.

فالصمد: هو الذي يصمد إليه في الحوائج، أي يقصد، وصمد من باب نصر، أي قصد.

والمعنى المراد: هو الله الذي يقصد إليه كل مخلوق، لا يستغني عنه أحد، وهو الغني عنهم. وهذا لإبطال اعتقاد المشركين العرب وأمثالهم، بوجود الوسائط والشفعاء. قال ابن عباس في تفسير الصمد: يعني الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكيمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفاء، وليس كمثلته شيء، سبحانه الله الواحد القهار.

وليس لله مصدر ولا فرية فهو لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) أي إنه سبحانه لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء، ولأنه قديم غير محدث، لا أول

لوجوده، وليس بجسم. وهذا نفي للشبه والمجانسة، ووصف بالقدم (الأزلية) والأولية، ونفي الحدوث. بل ونفي النهاية والفناء، كما في آية أخرى: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الحديد: 3 / 57].

ثم إن الجملة الأولى لَمْ يَلِدْ ذات هدف مزوج، فهي نفي لوجود الولد لله، ورد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وعلى اليهود القائلين:

عزير: ابن الله، وعلى النصارى الذين قالوا بالتثليث، وبأن المسيح ابن الله، وعلى المانوية القائلين بالوهية النور والظلمة، وعلى الصابئة الذين يعبدون النجوم. وكذلك الجملة الثانية مزدوجة الأثر: نفي لوجود الوالد، وسبق العدم، بمعنى أنه لم يكن غير موجود ثم وجد.

ثم نفى الله تعالى عن ذاته مشابحة الحوادث فقال: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) أي ليس لله أحد يساويه، ولا يماثله، ولا يشاكره، وهذا متعدد الهدف، فهو نفي لوجود الصاحبة، وإبطال لما يعتقد به المشركون العرب، من أن لله ندًا في أفعاله (والند: النظير والمثيل) حيث جعلوا الملائكة شركاء لله، والأصنام والأوثان أندادا لله تعالى. فهذه السورة تتضمن أن الله واجب الوجود، ويحتاج إليه كل شيء موجود، وهو منزه عن كل ما لا يليق به، وليس كمثلته شيء.

ولهذه السورة نظائر أخرى، منها آية: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام: 6 / 101]. أي إنه مالك كل شيء وخالقه، فكيف له من خلقه نظير؟!.

جاء في صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم».